

قراءة موجزة في كتاب "الإنسان - دراسة في النوع والحضارة"

يشتمل هذا الكتاب على 609 من الصفحات يتوزعها قسمان، وأربعة عشر فصلاً مسبقة بمقدمة، ومذيلة ببعض المصطلحات الرئيسية في علم الإنسان، وبقائمة ثرية من المصادر والمراجع.

وحتى نأخذ فكرة إجمالية عن محتويات هذا الكتاب الضخم، نورد عناوين فصوله قبل الوقوف عند أهم عنصر يندرج في تخصصنا، وهو موضوع «مفهوم ومهام وحقل الأنثروبولوجيا».

فالقسم الأول من هذا الكتاب الموسوم "دراسة في النوع البشري"

يحتوي على خمسة فصول؛ هي:

الفصل الأول: نوع العلاقة وتطور نوع الإنسان.

الفصل الثاني: تصنيف المعادلات

الفصل الثالث: الإنسان الحفري نوعاً وحضارة

الفصل الرابع: السلالات المعاصرة

الفصل الخامس: الاضطهاد العنصري

أمّا القسم الثاني الموسوم "دراسات في الحضارة الإنسانية" فكان

أكثر تفصيلاً وأعمّ توضيحاً حيث اشتمل على تسعة فصول هي:

الفصل الأول: الحضارة - مفهومها وميادها

الفصل الثاني: الأنواع الرئيسية للحضارات

الفصل الثالث: بعض مشكلات التنظير الأنثولوجي

الفصل الرابع: المدارس الأنثولوجية

الفصل الخامس: اللغة أنثولوجياً

الفصل السادس: الحضارة المادية

الفصل السابع: الأنثروبولوجيا الاقتصادية

الفصل الثامن: التنظيم الاجتماعي

الفصل التاسع: الديانة والسحر والفنون

تلخيص ودراسة

إنّ هذا الكتاب، مثلما يتّضح، ذو فائدة عظيمة في مجالات البحوث الإنسانية، ولاسيّما أنّه تناول بالدراسة والتحليل الخوض في مكونات المجتمعات البشريّة والأصول الإنسانيّة ممّا يزيده قيمة، ويُضفي عليه صورة مشرقة لهذا العلم الذي يُعدّ جديداً وجليلاً في الآن ذاته، ولاسيّما أنّ المصادر في هذا التخصص نادرة، والمكتبات العربيّة شحيحة جدّاً، ولا نكاد نجد ما يشفي الغليل، أو يجيب على كثير من التساؤلات.

وبالنظر إلى كثافة حجم هذا الكتاب وتعدّد فصوله ومباحثه، فإنّني سأقف عند عنصر واحد؛ وهو: مفهوم ومهامّ وحقل الأنثروبولوجيا¹ وقد تناول الكاتب ضمن هذا الحقل عدّة مباحث تتمثّل في كلّ من: الحاجة إلى دراسة الإنسان، وتطوّر مفهوم الأنثروبولوجيا، وميدان الدراسات الأنثروبولوجيّة، ومشكلات الأنثروبولوجيا كعلم، ومهامّ علم الأنثروبولوجيا، وعلاقة الأنثروبولوجيا العامّة بالعلوم الأخرى.

1 - الحاجة إلى دراسة الإنسان:

يستفتح الكاتب هذا المحور بقول أوجستين (AUGUSTINE): «إنَّ الإنسان يتعجَّب من البحر المائج والماء المندفع ومنظر السَّحب وأشكالها، ونسي أن أكثر العجائب دعوة للعجب هو الإنسان نفسه»².

وهو يورد هذه المقولة التي تكاد تكون مثلاً سائراً لينطلق منها إلى دراسة الإنسان باحثاً بذلك عن المسوّغات التي أفضت به إلى أن يتناول بالبحث والتحليل الحديث عن الإنسان وأصله وعلاقته بالسَّلالة البشريّة، ويقف عند تعريف مصطلح الأنثروبولوجيا فيقول: «الأنثروبولوجيا: كلمة مركّبة مستمّدة من اللغة الإغريقيّة، القسم الأول منها أنتروبوس (Anthropos). بمعنى إنسان، ولوجيا (Logia). بمعنى دراسة»³.

وتتجلّى أهميّة الأنثروبولوجيا في كونها تؤديّ إلى زيادة معلوماتنا عن الإنسان، ويدرّب عليها زيادة القوّة التي تمكّننا من فهم القوى البيولوجيّة والوراثيّة لدى الإنسان وضبطها إن أمكن.

والأنثروبولوجيا: تساعد على فهم طبيعة الإنسان، «ومحاولة إيجاد أسس علميّة ومنهجيّة لفهم مشكلاته وتطوير مجتمعاته بطريقة أكثر اتّفاقاً مع كمّ الظروف البيئيّة والتاريخيّة والاجتماعيّة»⁴.

فهذا العلم لم يعد ذا بعد ضارب في الغموض والخوارق، ولكنّه صار ذا شأن في فهم طبيعة الإنسان وسلوكه وتصرفاته مما يدعو إلى ضرورة تدريسه في الجامعات والكليات، وتقريره ضمن برامجها المختلفة.

2 - تطوّر مفهوم الأنثروبولوجيا:

مما هو متعارف عليه حالياً أنَّ الأنثروبولوجيا العامة هي علم من العلوم التّادّرة التي تجمع بين العلوم الطبيعيّة والإنسانيّة، باعتبار أنَّ «الإنسان

جزء مما نسميه جميعا الطبيعة، ومن ثم، فإنّ الإنسان مظهر طبيعيّ لأنّه جزء من العالم العضوي المادي، ولأنّه نوع بيولوجي من أنواع المملكة الحيوانية»⁵.

ويستدرك المؤلف بأنّ دراسة الأنثروبولوجيا ليست دراسة بيولوجية للإنسان فحسب، ولكنها دراسة الإنسان وكل أعماله؛ إنّها علم يدرس السلالات والعادات والإنتاج الإنساني، ولهذا فإنّ «الدراسة الخاصّة بالإنتاج الماديّ والفكريّ والدينيّ والفنيّ والعادات والنظم الاجتماعية تجعل من الأنثروبولوجيا علماً من العلوم الإنسانية الاجتماعية»⁶.

ومن المتداول المألوف أنّ موضوعات الأنثروبولوجيا قديماً كانت تتعلّق بالديانة وفكرة الإله والتمايز والاختلاف الحضاريّ وتقسيم المجتمع إلى طبقات وسلالات اقترنت في مجملها بأبحاث الفلاسفة وبالصبغة الفلسفية، وما تزال هذه الموضوعات مرتبطة بطريقة أو بأخرى بالطابع الفلسفي، ومن ذلك، مثلما يؤكّد الكاتب أنّ المدرسة النمساوية الألمانيّة في الأنثولوجيا (VOLKERKUNDE, ETHNOLOGIE) ارتبطت بنظرية أفلاطون⁷، وأنّ دافيد هيوم (DAVID HUME) كان له دور هام في المراحل الأولى لنشأة المدرسة الأنثروبولوجية الإنجليزيّة، وهو متأثر بنظرية الفيلسوف الإغريقيّ القديم ديمقراط (DEMOCRITUS) المادية⁸.

على أنّ الذي لا يتناقض فيه الدارسون، هو أنّ الأنثروبولوجيا علم حديث، لأنّه لم يمحض على هذا العلم بصورته الحالية أكثر من قرن وثلاثين سنة، وهو يعرف تطوّراً مستمراً بسبب ظهور مناهج جديدة في العلوم الاجتماعية، والتي تتأثر بها الأنثروبولوجيا بطبيعة الحال. ولأنثروبولوجيا أقسام كانت، حسب الكاتب، موضوعاً واحداً في البداية مثلما يؤكد ذلك

البيان الصادر عن الهدف من وراء إنشاء الجمعية الأثنولوجية الفرنسية في باريس عام 1839م، وأهمّ ما ورد في بيانها ما يلي:

« إنّ العناصر الأساسيّة التي تستخدم لتمييز السلالات البشرية هي:

- التركيب الطبيعيّ

- الصفات الفكرية والخلقية

- اللغات

- التقاليد التاريخية»⁹.

ويُستخلص من هذا البيان أنّ الأثنوبولوجيا كانت في بدايتها تهدف إلى دراسة السلالات «وتمييزها عن بعضها مستعينة في ذلك بدراسات لغوية وحضارية»¹⁰.

وقد جاء هذا الاتجاه نتيجة خلط في المفاهيم، حيث إنهم كانوا يتكلمون عن سلالات لا وجود لها مثل السلالة الهندو-أوروبية، أو السلالة السامية، أو السلالة الكلتية (CELTIC) أو السلالة الجرمانية، وقد دخلهم هذا الوهم من خلطهم بين الشعب واللغة.

ويرى هين جيلدرن (HENE GELDERN) أنّ مفهوم الأثنوبولوجيا الواسع «له جذور عميقة في تراث القرن 18 وأوائل القرن 19، ويتمثل هذا التراث في تلك المفاهيم الخاطئة عن السلالة والشعوب التي سبق ذكرها، وأصبحت حافزا لنشأة علمية للأثنوبولوجيا المعاصرة»¹¹.

3 - ميدان الدراسات الأثنوبولوجية:

لقد تردّد مصطلح «أثنوبولوجيا» مرّات متعدّدة في هذا الكتاب، ولكنّ تعريفه قد يكون يتّسم بضبابيّة؛ لذلك يورد المؤلّف تعريفاً له يبدو

مختصرا نوعا ما، ولكنه يجلي الحقيقة مع ذلك، ويقرب إلى الأذهان هذا العلم، فيرى أنها «الدراسة العلمية للإنسان منذ ظهوره على سطح الأرض في مجالات تكوينه وصفاته الجسدية والاجتماعية والسلوكية وتطور ونمو حضارته»¹².

والأنثروبولوجيا، تساير الإنسان نفسه، لأن الإنسان في مفهوم علماء الاجتماع والبيولوجيا يتكوّن من جزأين متممين لبعضهما هما: المادة والناتج الإنسانيّ غير المادّي. والأنثروبولوجيا بدورها تنقسم إلى قسمين رئيسين هما: الأنثروبولوجيا الطبيعية، والأنثروبولوجيا الحضارية، ولكلّ من هذين الصنفين مجالات فرعية متعددة يمكن تلخيصها في الآتي:

أولاً: الأنثروبولوجيا الطبيعية (PHYSICAL ANTHROPOLOGY)

وهي تنقسم إلى ميدانين رئيسيين هما:

1 - ميدان دراسة التطور الإنسانيّ والإنسان الحفريّ (FOSSIL MAN)

وينصبّ اهتمام هذا الميدان على الإنسان قديما من خلال البحث في الحفريات المتعلقة بتاريخه ونشأته ومكوّناته بعامة، والتوصل إلى التغيّرات التي حدثت له في هيكله العظمي ونسيجه المركزي العصبي ابتداءً من الشّكل والصفات التي تميز الرئيسيات إلى الشّكل والصفات التي تميز الإنسان المعاصر، بيد أن النتائج في هذا الحقل لم تتوصّل إلى حقائق ثابتة.

2 - ميدان دراسة الصفات الطبيعية للإنسان (PYSICAL

ANTHROPOLOGY)

ويتناول هذا الجانب بالدراسة التغيرات البيولوجية بين مجموعات الإنسان «في أقاليم الأرض الجغرافية على أساس تشريحي، وبالمقارنة مع الهياكل الموجودة في المقابر الحديثة زمنيا، ويؤدّي ذلك إلى تصنيفات للبشر

على أسس دراسة قياسية ومورفولوجية لصفات طبيعية معنية، بالإضافة إلى دراسة الوراثة»¹³.

ومن هنا، فإنّ الأنثروبولوجيا الطبيعية تدرس الإنسان بصفته كائنًا بيولوجيًا من حيث تكوينه الجسديّ وتطوّره بوساطة الوراثة وعن طريق سلالاته القديمة والحديثة، كما تدرس توزيع السلالات على وجه الأرض.¹⁴ هذا، وذهب الكاتب إلى أنّ الدراسات العلميّة في هذا الميدان أثبتت بأنّ السلالات البشرية الحالية تنتمي إلى نوع بيولوجي واحد هو ما نسمّيه «الإنسان العاقل».

ويختصّ علم الأنثروبولوجيا الطبيعية بدراسة هذه المجموعات الإنسانية لتحديد صفاتها المشتركة التي تولّف فيما بينها الإنسان المعاصر. «وحينما تبدأ الأنثروبولوجيا الطبيعيّة دراسة الإنسان في ما قبل التاريخ، فإنّ مصدرها الوحيد هو الهياكل العظمية الحفريّة بالإضافة إلى عدد ضئيل من المومياءات معظمها راجع إلى تاريخ حديث جدا بالمقارنة بتاريخ الإنسان الطبيعي»¹⁵.

وعندما يدرس الأنثروبولوجيون السلالات المعاصرة فإنّهم يتناولون صفات أخرى في الجسم الحيّ، فهم «يدرسون أشكال الجسم والأعضاء والتركيب العضلي ولون البشرة ولون وشكل العين ولون الشعر ونوعه، بالإضافة إلى دراسة عدد من الأعضاء الداخلية مثل الغدد المختلفة، وفوق كل هذا دراسة الدم وفصائله»¹⁶.

ثانيًا: الأنثروبولوجيا الحضارية (ethnology cultural anthropology)

وتنقسم إلى ثلاثة ميادين رئيسية هي:

1 - ميدان الأركيولوجيا وما قبل التاريخ (archeology - prehistory)

تساعدنا هذه الدراسة على استكشاف تاريخ الشعوب المختلفة في مراحل نموها قبل كتابة تاريخها. «وتتمّ هذه الدراسات عن طريق التنقيب وكشف مخلفات الحضارة المادية لفهم تطوّر وتكنولوجيا القدماء، وفي بعض الأحيان فهم بعض عقائدهم وعاداتهم (...)» ويستفيد علم ما قبل التاريخ في تصنيفه للتتابع الحضاريّ بالدراسات الجيولوجيّة لتحديد عمر الطبقات التي توجد فيها مخلفات الإنسان الحضاريّة»¹⁷.

2 - الدراسات اللّغوية (LINGUISTICS)

«يقوم الدارسون لهذا الميدان بوصف وتسجيل وتحليل الصّوتيات والمفردات والنحو والتركيب اللغوي لعدد من اللغات قد يبلغ 2700 لغة. وهم يقدّمون مقارنات لمميّزات هذه اللغات من أجل الوصول إلى علاقات بين اللغات والتغيّر اللغوي في الماضي»¹⁸.

ويجدر الذكر أنّ عمل الأنثروبولوجيّين اللّغويين لا يقتصر على اللّغات المكتوبة؛ بل إنّهم يركّزون أيضاً على اللغات غير المكتوبة بين الجماعات ذات التكنولوجيا البدائيّة.

3 - الأنثروبولوجيا الحضارية (علم الإنسان الحضاريّ): (CULTURAL ANTHROPOLOGY (ETHNOLOGY)

إنّ الإنسان مخلوق مثل بقيّة المخلوقات الأخرى، ولكنّه مفضّل عليها بما وهبه الله سبحانه وتعالى من عقل وفكر، فهو يختلف عنها ويتميّز بالحضارة. وحتى وإن كانت التعريفات متباينة بشأن الحضارة، فإنّ المؤلّف يقتصر على تعريف موجز لها بقوله: «والحضارة يمكن أن توصف بأنّها الوراثة الاجتماعية التي تُنقل من جيل إلى آخر عن طريق مستقلّ غير النقل البيولوجيّ بواسطة الخلايا التي تميّز بقيّة الكائنات (...)» ومهمّتهم الرئيسيّة،

مهما كانت مدارسهم¹⁹ وصف وتحليل هذا الكم الهائل المتغير المختلف من العادات وأشكال الحياة الاجتماعية ومحاولة تفسيره²⁰.

وتنصبّ دراسة هؤلاء الأخصائيين على الحياة أو الجوانب المادية من الحضارة وأشكال الحياة الاقتصادية وتنظيم المجتمع وشكل الأسرة والتنظيم العشائري والقبلي والجمعيات السرية والدينية ونظام الحكم والنظم القانونية والعقائد والفنون وغيرها من النشاط والسلوك الحضاري²¹.

4 - مشكلات الأنثروبولوجيا (بصفتها علماً):

بما أنّ الأنثروبولوجيا باختصار هي علم الإنسان، فإنّ ذلك قد أدّى إلى إيجاد استخدامات لغويّة لها نظير ما في اللغات اليومية، فظهرت في مدارسها مصطلحات: جنس، سلالة، بدائيّ، جنس متخلف، سلالة أصلية، حضاريّ، غير متحضّر، بربريّ، بربريّة، السحر، العشيرة، القبيلة، الدولة، الزعيم، الحضارة، الطوطم، الروح، الأرواح، البدو.

5 - مهام علم الأنثروبولوجيا:

ليست الأنثروبولوجيا خيالا فضفاضاً، ولا خطاباً براقاً ولكنها علم بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من معنى دقيق صارم. ومن أجل ذلك، فإنّ لها أهدافاً واضحة ومحدّدة على النحو الآتي:

- أ - وصف مظاهر الحياة البشريّة والحضارة وصفاً دقيقاً.
- ب - تصنيف تلك المظاهر بعد درسها للوصول إلى أنماط عامّة.
- ج - تحديد أصول وأسباب التغير وعملياته مع وصف التغير...
- د - استخلاص مؤشرات أو توقعات للاتجاه المحتمل للتغير في الظواهر المدروسة²².

6 - علاقة الأنثروبولوجيا العامّة بالعلوم الأخرى:

أولاً - الأنتروبولوجيا

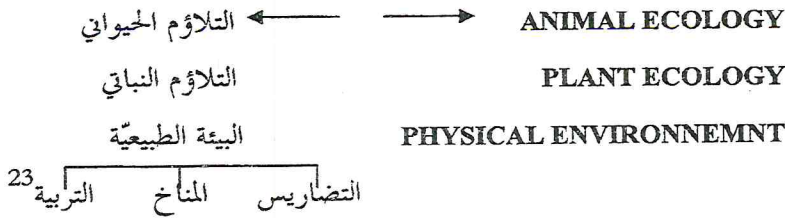
أ - البيولوجيا (BIOLOGY):

إنَّ العلاقة بين الأنتروبولوجيا وبين البيولوجيا واضحة لأنَّ الدراسة الطبيعية للإنسان هي في جوهرها دراسة بيجولوجية.

ب - الباليونتولوجيا (PALEONTOLOGY):

ومعناها الدراسات القديمة جدًّا، وهذه الدراسة على جانب كبير من الأهمية لأنَّها تبحث في سطح الأرض إبان العصور المختلفة، وتهدف إلى التعرف على الأحوال الإيكولوجية (ECOLOGY) في تلك العصور. ويشرح المؤلف العلاقة الوطيدة بين الإنسان والمحيط الطبيعي المكوّن من تلاؤمات أخرى هي:

تلاؤم بين الإنسان والمحيط الطبيعي المكوّن من:



ج - التشريح:

وعلاقة الأنتروبولوجيا بعلم التشريح قويّة جدًّا، في نظر المؤلف، لأنَّهما «يعالجان عددا من المشكلات المشتركة. فعلم الأنتروبولوجيا أساسا يدرس الإنسان ويحلّل الاختلافات السلالية لدرجة أصبح معها تدريس الأنتروبولوجيا الطبيعية يتمّ داخل أقسام التشريح بكلّيات الطب»²⁴.

د - علم الوراثة (HEREDITY, HUMAN GENETICS)

ثانيا - الإثنولوجيا

أ - العلاقة بعلم الاجتماع

وهو يقرّر أنّ أهمّ فاصل بينهما يتلخّص في أنّ الإثنولوجيا هي علم الحضارة، بينما علم الاجتماع يختصّ بالاجتماع خاصّة، وأهمّ أوجه الاختلاف الأخرى هي:

- اختلاف النشأة

- ميدان التخصص

- مناهج البحث

ب - العلاقة بعلم النفس الاجتماعي

ج - العلاقة بعلم التاريخ

د - العلاقة بالجغرافيا

هـ - العلاقة بالعلوم الاقتصادية والسياسية

و - علاقة الإثنولوجيا بعلوم أخرى

خاتمة

كانت هذه خلاصة الخلاصة لقضايا ذات أهمية كبرى في مجال الأنثروبولوجيا وعلاقتها بمختلف العلوم، وقد تبين لنا أنّ هذا العلم، عكس ما يذهب إليه كثير من غير المطلعين عليه حتى لا نقول الجاهلين به، أنّه أكثر من ضروريّ ليس للباحثين في العلوم الإنسانية فقط، ولكنّه ذو فائدة عظيمة للباحثين في مجال العلوم الطّبيّة والعلوم الطّبيعيّة والعلوم الدّقيقة نفسها. وهو ذو وشيعة متينة معها حيث يساعدنا على التوصل إلى فهم كثير من النظريات التي قد تظنّ مستعصية بدون الرجوع إليه.

ويُستنتج ممّا أوردناه أنّ كتاب الدكتور محمد رياض قد أجاب عن كثير من التساؤلات، وشجّع المتردّدين علىولوج إلى علم الأنثروبولوجيا

طالما هو مرتبط أشدّ الارتباط بالبيولوجيا وغيرها من التخصصات المختلفة في الجامعة.

وكان بودّي أن أقوم بقراءة شاملة له، ولكنّ ذلك يحتاج إلى صفحات وصفحات، وقد يُفضي إلى خلط وتكرار، ولذلك اخترت جانباً من هذا الكتاب، والذي يندرج في تخصّصي الدقيق (الأنثروبولوجيا- البيولوجية) وقمت بقراءته قراءة إجمالية بطبيعة الحال.

الهوامش

* - نشر: دار النهضة العربيّة - بيروت. ط2 / 1974م.

¹ - الكتاب (ص 9 - 37).

² - Hoebel. E. A "MAN IN THE PRIMITIVE WORLD". New York 1958, p1.

³ - الكتاب ص 9.

⁴ - الكتاب، ص 9.

⁵ - نفسه، ص 9.

⁶ - نفسه، ص 12.

⁷ - KOPPERS, W., "DER URMENSCH UND SEIN WELTBILD" WEIEN 1949.

⁸ - BIDNEN, D. "THE ETHNOLOGY OF RELIGION AND THE PROBLEM OF HUMAN EVOLUTION", IN AMERICAN ANTHROPOLOGIST FEB. 1954, P2.

⁹ - ينظر الكتاب، ص 15.

¹⁰ - نفسه، 15.

¹¹ - "ONE HUNDRED YEARS OF ETHNOLOGICAL THEORY IN THE GERMANE - SPEAKING COUNTRIES"

نقلا عن م. ن، ص 16 - New York 1962

-
- 12 - الإنسان: د. محمد رياض، ص 18.
- 13 - نفسه، ص 19.
- 14 - ينظر م. ن. ص 19.
- 15 - نفسه، ص 20.
- 16 - نفسه، ص 20.
- 17 - نفسه، ص 21.
- 18 - نفسه، ص 22.
- 19 - لهذه المدارس أسماء مختلفة، فهناك الأنثروبولوجيون الحضاريون، والأنثروبولوجيون الاجتماعيون.
- 20 - م. س. ص 22.
- 21 - ينظر نفسه، ص 22.
- 22 - ينظر م. ن. ص 27.
- 23 - ينظر م. ن. ص 29.
- 24 - نفسه، ص 30.